تطبيقات في مادة نظرية الأدب / السنة الثانية ليسانس، ل م د

إعداد الأستاذ: الوافي سامي

التطبيق (10)

المدةُ: ساعة
الفئةُ المُستهدفةُ: طلبة السنة الثانية ليسانس ل م د

نظرية الانعكاس

إِذَا كَانَتْ الرِوَايَةُ حَسَبَ "لوسيان غولدمان" و"جورج لوكاتش": هِيَ قِصَّةُ كِفَاحِ بَطَلٍ مُنْحَطٍ، يُوَاجِهُ حَاضِرًا مُنْحَطًا مُتَدَهْوَرًا، بَحْثًا عَنْ قِيَمٍ أَصِيلَةٍ، تُعِيدُ لَهُ مَقَامَهُ، وَلِلوُجُودِ وَجَاهَتُهُ، فَإِنَّهُ بِإِمْكَانِنَا أَنْ نَعْرِفَ مِنْ خِلاَلِ هَذِهِ العِبَارَةِ المَسَارَ الذِي حَادَتْ عَنْهُ الرِوَايَةُ، ثُمَّ مَعْرِفَةُ المَسَارِ الجَدِيدِ الذِي اِلْتَزَمَتْهُ، وَالمَقْصُودُ هُنَا الشَكْلُ الرِوَائِيُ الجَدِيدُ، الذِي أَقَامَ القَطِيعَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَكْلِ الكَلاسِيكِي، وَلاَ أُرِيدُ الحِيَادَ عَنْ الكَلاَمِ السَابِقِ، لِأَقُولَ: بِأَنَّ الوَاقِعَ المَعِيشَ هُوَ الذِي صَاغَ الشَكْلَ الرِوَائِيَ الجَدِيدَ، وَاِنْطِلاَقًا مِنْ المَقُولَةِ الفَلْسَفِيَةِ السَائِدَةِ، وَالقَائِلَةُ بِأَنَّ الفَنَ مُحَاكَاةٌ لِلطَبِيعَةِ الوَاقِعِيَةِ، جَاءَ هَذَا الشَكْلُ الرِوَائِيُ الجَدِيدُ، لِيَتَحَدَثَ بِصَرَاحَةٍ عَنِ الوَاقِعِ الجَدِيدِ، لاَ أَنْ يُصْغِي إِلى اِحْتِجَاجَاتِ الجُمْهُورِ، الرَافِضِ لِرُؤْيَةِ صُورَتِهِ الحَقِيقِيَةِ فِي الوَاقِعِ، وَقَدْ اِنْغَرَسَتْ فِيهَا العُيُوبُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَرُؤْيَةُ "جورج لوكاتش" فِي هَذَا الصَدَدِ، تُثْبِتُ المَشْرُوعِيَةَ الفِعْلِيَةَ القَائِمَةَ بَيْنَ الرِوَايَةِ وَالمُجْتَمَعِ.

يُحَدِّدُ "لوكاتش" الرِوَايَةَ عَلَى أَسَاسِ أَنَّهَا: "الشَكْلُ الأَدَبِيُ الرَئِيسِيُ، لِعَالَمٍ لَمْ يَعُدْ فِيهِ الإِنْسَانُ فِي وَطَنِهِ، وَلاَ مُغْتَرِبًا كُلَّ الاِغْتِرَابِ، فَلِكَي يَكُونَ هُنَاكَ أَدَبٌ مَلْحَمِيٌ، لاَبُدَ مِنْ وُجُودِ وِحَدَةٍ أَسَاسِيَةٍ، وَلاَبُدَ لِكَي تَكُونَ هُنَاكَ رِوَايَةٌ مِنْ وُجُودِ تَعَارُضٍ نِهَائِيٍ بَيْنَ الإِنْسَانِ وَالعَالَمِ، وَبَيْنَ الفَرْدِ وَالمُجْتَمَعِ".

لِيُعْتَبَرَ -اِنْطِلاَقًا مِمَا سَبَقَ- "جورج لوكاتش" (ت 1971م) المُنَظِّرَ الأَسَاسِيَ لِهَذَا الاِتِجَاهِ النَقْدِيِ الوَاقِعِيِ المَارْكِسِيِ، فِي النِصْفِ الأَوَّلِ مِنَ القَرْنِ العِشْرِينِ، ذَلِكَ عِنْدَمَا دَرَسَ وَحَلَّلَ العَلاَقَةَ بَيْنَ الأَدَبِ وَالمُجْتَمَعِ، حِينَمَا تَبَنَّى نَظَرِيَةَ الاِنْعِكَاسِ، بِتَطْبِيقِهَا عَلَى الرِوَايَةِ بِشَكْلٍ عَامٍ، وَعَلَى الرِوَايَةِ الأُورُوبِيَةِ بِشَكْلٍ خَاصٍ، وَقَدْ فَهِمَ الأَدَبَ (الرِوَايَةَ) "عَلَى أَنَّهُ اِنْعِكَاسٌ نَمَوذَجِيٌ وَصَحِيحٌ فِي الفَنِ وَالأَدَبِ، وَأَوْضَحَ دَوْرَ المُبَادَرَةِ الفَرْدِيَةِ فِي قَهْرِ الضَرُورَةِ"، وَلِهَذَا تَعَرَّضَ لِسِلْبِيَةِ البَطَلِ وَإِيجَابِيَتِهِ وَنَمْذَجَتِهِ، وَاِنْبَثَقَ ذَلِكَ كُلّهُ مِنْ أَنَّ "صِرَاعَ الأَفْرَادِ لاَ يَسْتَمِدُ مَوْضُوعِيَتَهُ وَحَقِيقَتَهُ، إِلاَّ مِنْ الاِنْعِكَاسِ النَمَوْذَجِي وَالصَحِيحِ، فِي الشَخْصِيَاتِ وَالمَصَائِرِ لِلمَسَائِلِ المَرْكَزِيَةِ لِصِرَاعِ الطَبَقَاتِ"، فِي كُلِّ مُجْتَمَعٍ أَوْ وَاقِعٍ لَه خُصُوصِيَتَهُ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ هَدَفُهُ بَيَانُ أَطْرَافِ الصِرَاعِ الطَبَقِي، لِلتَأْكِيدِ عَلَى أَهَمِيَةِ طَبَقَةٍ وَأَهَمِيَةِ شَخْصِيَةٍ

مَا، تَتَحَوَّلُ إلى مُمَثِلٍ لِصُورَةِ الصِرَاعِ فِي عَصْرِهَا، وَكَمَا يَقُولُ "لوكاتش": "فَكِبَارُ الرِوَائِيِينَ يُجْهِدُونَ أَنْفُسَهُمْ لِابْتِكَارِ عَمَلٍ، يَكُونُ نَمَوْذَجًا بِالنِسْبَةِ إلى وَضْعِ المُجتَمَعِ فِي عَصْرِهِمْ، وَيَخْتَارُونَ رَكِيزَةً لِهَذَا العَمَلِ، إنْسَانًا يُلْبِسُونَهُ السِمَاتَ النَمُوذَجِيَةَ لِلطَبَقَةِ، وَيَصْلُحُ –فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ- فِي مَاهِيَتِهِ كَمَا فِي مَصِيرِهِ، لِأَنْ يَظْهَرَ بِمَظْهَرٍ إيجَابِيٍ، وَلِأَنْ يَبْدُو جَدِيرًا بِالتَأْيِيدِ وَالمُعَاضَدَةِ"؛ أَيْ أَنَّ الفِكْرَ الذِي يُؤْمِنُ بِأَنَّ فَهْمَ الإِنْسَانِ وَالأَفْرَادِ لاَ يُمْكِنُ بَمَعزِلٍ عَنْ حَيَاتِهِمْ، وَوُجُودُهُمْ الاِجْتِمَاعِيُ وَالسِيَاسِيُ وَالاِقْتِصَادِيُ هُوَ البَطَلُ الحَقِيقِيُ، الذِي يُحَدِّدُ فَاعِلِيَةَ الفَرْدِ فِي الجَمَاعَةِ، إلى جَانِبِ تَحْدِيدِ مَصِيرِ سُلُوكِهِ وَهَزِيمَةِ إرَادَتِهِ وَانْتِصَارِهَا.

وَبِالتَالِي تَكُونُ أَهَمُّ المُسَاهَمَاتِ التِي قَدَّمَهَا لِلنقْدِ الاِجْتِمَاعِيِ، مُتَمَثِّلَةً فِي مَفْهُومَيِ: الاِنْعِكَاسِ وَالوَاقِعِيَةِ الأَدَبِيَةِ.

أ/ الاِنْعِكَاسُ: عَمِلَ النَاقِدُ اِنْطِلاَقًا مِنْ الاِتِجَاهِ المَارِكِسِيِ، عَلَى رَبْطِ أَشْكَالِ الوَعْيِ كَافَةٍ، بِالبِنْيَةِ الاِقْتِصَادِيَةِ (البِنْيَةُ التَحْتِيَةُ) المُحَدِّدَةِ لَهَا، فَفِي كِتَابَاتِهِ كَشَفَ عَنْ العَلاَقَةِ الجَدَلِيَةِ بَيْنَ دَلاَلاَتِ الأَعْمَالِ الإِبْدَاعِيَةِ الكُبْرَى، وَدَلاَلاَتِ البِنْيَاتِ الاِجْتِمَاعِيَةِ، وَيَرَى أَنَّ الأَدَبَ ظَاهِرَةٌ تَارِيخِيَةٌ، لَهَا أُصُولُهَا الضَارِبَةُ فِي أَعْمَاقِ كِفَاحِ الطَبَقَاتِ.

ب/ الوَاقِعِيَةُ: تُعَدُّ كِتَابَاتُ "لوكاتش" حَوْلَ الوَاقِعِيَةِ، مِنْ أَهَمِّ وَأَعْمَقِ مَا كَتَبَ حَوْلَ هَذِهِ المَسْأَلَةِ، إذْ الوَاقِعِيَةُ عِنْدَهُ تَسْتَنِدُ إلى إدْرَاكٍ مُتَعَيِّنٍ لِلوَاقِعِ الاِجْتِمَاعِيِ، وَلِكَيْفِيَةِ تَجَاوُزِهِ .

لِيُطَوِّرَ –مَعَ مَا سَبَقَ- "النَظْرَةَ الوَاقِعِيَةَ إلى الأَدَبِ، تَطْوِيرًا يَنْطَوِي عَلَى قَدْرٍ كَبِيرٍ مِنْ العُمْقِ، وَكَانَ يَمِيلُ إلى الجَانِبِ الهِيجْلِيِ مَعَ الفِكْرِ المَارْكِسِيِ؛ إذْ نَظَرَ إلى الأَعْمَالِ، بِوَصْفِهَا اِنْعِكَاسًا لِنَسَقٍ يَنْكَشِفُ تَدْرِيجِيًا؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ العَمَلَ الأَدَبِيَ الوَاقِعِيَ لاَبُدَّ أَنْ يَكْشِفَ عَنْ نَمَطِ التَنَاقُضَاتِ، الذِي يَكْمُنُ مِنْ وَرَاءِ نَمَطٍ مُعَيَّنٍ، وَظَلَّتْ نَظْرَتُهُ فِي إلْحَاحِهَا عَلَى الطَبِيعَةِ المَادِيَةِ وَالتَارِيخِيَةِ لِبِنْيَةِ المُجْتَمَعِ ".

هُوَ لاَ يَعْتَبِرُ الوَاقِعَ مُجَرَّدَ مَكَانٍ مُتَدَهْوِرٍ مَحكُومٍ عَلَيْهِ بِالإِثْمِ الأَمْثَلِ، بَلْ كَمَسْرَحِ صِرَاعٍ دَمَوِيٍ بَيْنَ سِلْبِيَةِ القِوَى القَدِيمَةِ وَإِيجَابِيَةِ القِوَى المُسْتَقْبَلِيَةِ، أَضَافَ البُعْدَ التَارِيخِيَ، وَحَافَظَ عَلَى مُقَابَلَةِ المَلْحَمَةِ وَالرِوَايَةِ، وَاِعْتَبَرَ اِنْفِصَالَ الفَرْدِ مَعَ المُجْتَمَعِ، هُوَ التَنَاقُضُ المَوْضُوعِيُ لِلرَأْسمَالِيَةِ "، وَأَثْنَاءَ كَلاَمِهِ عَنْ المَلْحَمَةِ، –كَتَغْيِيرٍ لِعَالَمٍ يَنْسَجِمُ فِيهِ وَالمُجْتَمَعَ- رَكَّزَ "لوكاتش" فِي"نَظَرِيَةِ الرِوَايَةِ" عَلَى اِسْتِسْلاَمِ البَطَلِ لِمَصِيرِهِ، الذِي سَطَّرَتْهُ الآلِهَةُ، فَكُلُّ مَا يَقُومُ بِهِ البَطَلُ مَكْتُوبٌ مُنْذُ الأَزَلِ فِي الكُتُبِ السَمَاوِيَةِ.

وَاِنْطِلاَقًا مِنْ وُجْهَةِ نَظَرِهِ المَارِكِسِيَةِ حَافَظَ "لوكاتش" عَلَى الاِنْسِجَامِ بَيْنَ الفَرْدِ وَالمُجْتَمَعِ، كَقَاعِدَةٍ أَسَاسِيَةٍ لِلمَلْحَمَةِ، لَكِنَهُ اِنْتَقَلَ مِنْ فَوقٍ إلى تَحْتٍ؛ أَيْ مَا كَانَ مَصِيرًا

إِلَهِيًا، أَصْبَحَ اِنْعِدَامًا كُلِيًا لِتَقْسِيمِ العَمَلِ، هِيَ الطُفُولَةُ العَادِيَةُ لِلإِنْسَانِيَةِ مِثْلَمَا يَقُولُ "ماركس"، كَمَا آمَنَ بِالتَطَابُقِ بَيْنَ حَرَكَةِ الفَنْ وَحَرَكَةِ الحَيَاةِ؛ أَيْ أَنَّهُ عَلَى المُبْدِعِ السَعْيَ إلى تَغْيِيرِ الوَاقِعِ، وَيَرَى بِأَنَّ الأَدَبَ فِي جَوْهَرِهِ هُوَ مَعْرِفَةٌ بِالوَاقِعِ، تَنْتُجُ عَنْ رُؤْيَةٍ وَتَحْلِيلٍ، وَلَيْسَ اِنْعِكَاسًا سَطْحِيًا لِمَظَاهِرِ الوَاقِعِ، لِيَكُونَ بِذَلِكَ النَمُوذَجُ الأَدَبِيُ أَوْ النَصُ الأَدَبِيُ بِعَامَةٍ، شَبِيهٌ مِنْ حَيْثُ بِنْيَتِهِ بِآلِيَةِ /العَالَمِ، فَلاَ يَكُونُ فِي هَذِهِ الحَالَةِ مُجَرَّدَ قَوْلٍ عَنْ العَالَمِ، بَلْ إِنَّهُ يَأْخُذُ وَضْعًا بِالنِسْبَةِ لِلعَالَمِ، وَهُوَ كَكُلٍّ نَمَوْذَجٌ يَدْخُلُ فِي تَنَاسُبٍ مَعَ الأَصْلِ، مُتَطَلِبًا أَنْ يَكُونَ المَوْقِفُ المُتَخَذُ مِنْهُ مِثْلَ الأَصْلِ، أَوْ مِنْ النَصِ الأَدَبِي –فِي أَيٍ مِنْ أَشْكَالِهِ- كَمَا أَوْضَحَ "لوكاتش" مِنْ قَبْلُ، وَوَاضِحٌ أَنَّ تَغْيِيرَ العَالَمِ وَتَغْيِيرَ الوُجُودِ الإِجْتِمَاعِي وَأَشْكَالِهِ، وَرَاءَ هَذَا الإِنْعِكَاسِ النَمَوْذَجِي الصَحِيحِ، وَبِذَلِكَ يَظَلُّ النَصُ فِي صِرَاعٍ مَعَ الأَصْلِ؛ أَيْ مَعَ الوَاقِعِ النَفْسِي وَالإِجْتِمَاعِي المُنْعَكِسِ عَنْهُ، وَتَظَلُّ لِلنَصِ الأَدَبِي خُصُوصِيَتَهُ وَلِلأَدِيبِ وَضْعٌ مُتَمَيِّزٌ: الأَوَّلُ فِي لُغَتِهِ وَتَشْكِيلِهِ، وَالثَانِي فِي رُؤْيَتِهِ لِلعَالَمِ وَالذَاتِ.

لِيُكمل "ميخائيل باختين" (1895-1975) رؤيةَ "لوكاتش" للروايةِ موضّحًا "أنّ الرواية هي النوع الأدبي الوحيد الذي مازال قيد التّشكل، ولذلك فإنها تعكس بشكل أساسي وبعمق ودقة وسرعة التطور، وما هو قيد التَّشكل يستطيع – وحده- أن يفهم ظاهرة السيرورة، وأصبحت الرواية هي البطل الأساسي للدراما التي يُبرِزها الطور الأدبي في العصر الجديد".

ليخصّص "جورج لوكاتش" الكثير من أعماله حول الفكر والأدب والفن، مُستندا إلى ربطٍ وثيقٍ بين الذوق الكلاسيكي الذي لا يتوقف عن إبداء إعجابه به، والعقيدة الماركسية (المادية الجدلية التاريخية) التي بقي مُخلِصا لها طوال حياته، فكتاباته وتنظيراته الأدبية والفكرية لا تزال من المراجع الأساسية للأدباء الواقعيين، والنقاد الذين ينهجون المنهج الاجتماعي.

مصادر ومراجع:

1- شكري عزيز الماضي: في نظرية الأدب، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1993.

2- عبد المنعم تليمة: مقدمة في نظرية الأدب، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر، ط1، سبتمبر 1997.